أحببت ملحداً
بقلم: هبه اللكاوي
سكاف
SKAFF

(1)

أنا هي..فتاة في الخامسة والعشرين من عمري .
لم أكن أتخيل أن اكتب قصتي تلك لأضعها بين أياديكم ..هل أنا مجنونة لأفصح سرا ماكنت يوما لأبوح به؟ لكني سأحكي قصتي..تعبت من ذلك السر الذي احتويته لسنوات... منذ ان كان عمري عشرين عاما!!
من أين بدأت الحكاية؟
كنت في محاضرة يلقيها أحد أستاذتي في أداب علم نفس جامعة القاهرة..وكنت أنا بذلك الفستان الأرجواني وحجاب الرأس..ووجه مليح القسمات...أستمع اليه في تؤدة...
كنت أحب النفس..وأسرارها..وكل ما هو موصول بها...وكنت أطمع أن أجعل كل بشريا أقابله...يرى أن بنفسه بقعة ضوء..مهما بلغت أخطاؤه عنان السماء!!
فالله يسكن شغاف روحه.... الله في جسده..وعقله..وأذينيه وبطينيه الذين يسبحون بالحمد حتى ولو لم يسبح لسانه....فكيف لايكون موطنه خيرا لم يناله بعد؟!
حتى لمحته..كان هو.. أشعث الشعر..يرتدي نظارة طبية..ملامحه الرجولية...وجسده الفتي...وأناقة مظهره ..لم تترك لي الخيار
وحين تأملته..شيئ ما هنا بداخلي..قد تحرك...هل كانت أواصر القدر تخبرني بموعد بدأ الحكاية؟ ام أنني انجذبت اليه كسندريلا..رأت فيه أميرها ؟ أم أن الأمير بحد ذاته كان هالة من السحر يصعب على اي انسان ألا ينجذب الى رحابتها ؟
ظل عالقا في فكري حتى آخر المحاضرة ...لم أكن اعرف ما حدث لي ؟ تحولت المحاضرة الى طلاسم أعجز عن فهمها ! كنت أحصي الدقائق حتى تنتهي...
وحين حانت لحظة المغادرة كنت أسرع...وكلي أمل في الهروب من حصار التفكير به!
-يا آنسة...
هكذا سمعت صوتا من خلفي يناديني وأنا أهبط الدرج الخاص

بالكلية....لو هلة شعرت بنغزة في القلب لا أعرف لها
سببا.....التفت.....وكان هو وليتني لم ألتفت!

(2)

-يا آنسة..

-لقد نسيت قلمك هذا

دق قلبي مرة أخرى..لم أكن أدري حقا ما أنا فيه..ولم يخفق القلب هكذا كمجنون لا يكف عن الصراخ..كان هو وسيما للدرجة التي توقف عندها كل شيئ.لم أعد أدري أين أنا وفي أي زمن نحن..خيل لي أني أسمع تغريد العصافير في أذنيَّ...وكان هناك نور في وجهه لم أدر ماسببه ..هل كانت تلك ومضات القدر؟ !!

تأوهت قائلة بعينين خجولتين:

-آه حسنا..على مايبدو أنني شردت قليلا...شكرا لك

-ما اسمك؟ هكذا قالها مبتسما

-اسمي ليلى...وأنت؟

-أنا محمد... طالب هنا معك أكبرك بعام.كان من المفترض أن يكون هذا العام أخر أعوامي في الجامعة لكن مرض أمي حال دون ذلك .

-لا بأس اذن....هل هي بخير الآن؟

-أتمنى أن تكون بخير....قالها وهو شارد في الأعلى

نظرت له مستفهمة ...لكنه لم يتكلم بأكثر من ذلك...هل وافتها المنية اذن؟ أم أن هناك شيئ ما لا يصح لي أن أعرفه؟ لم أشأ لأساله فيظن ذلك تطفلا مني..

-أتعلمين ليلي..أنت أنيقة جدا...هل لي أن أسألك سؤالا؟

تدفق الدم الى وجنتيَّ..أكاد أسمع هذيان قلبي بنبضات شاردة.. لم أكن معتادة على سماع كلمات الغزل تلك..

-تفضل ...قلتها وقد أطرقت رأسي!!

-لي صديقة دخلت الإسلام حديثا وكنت أود أن أحضر لها حجابا للرأس كهدية..فهل تساعديني؟

لم تدم فرحتي بكلمات الغزل كثيرا...فمن تكون تلك الصديقة التي يهتم بها؟ هل هي حبيبة؟.. لوهلة غرس هذا في قلبي ألما..

-أه حسنا بالطبع.هناك (مول) أعرفه بالقرب من هنا...من الممكن أن أخذها إلى هناك ..فتختار هديتها بنفسها

-حسنا اتفقنا..سننتظرك غدا أمام الكلية...إنه يوم عطلة فهل لديك مانع؟

-لا بالطبع..اتفقنا

ابتسمت فابتسم لي لتضئ عتامة قلب بعد حضور طويل لظلمة بكت من وحدتها!

وودعني على أن نتقابل في اليوم التالي..

لم أنم طوال ليلتي هذه ..بت أقضي الوقت فيما سأفعله حتى أخلب لبه..شعرت بروح المنافسة تستفزني وترويني لأكون بأفضل صورة .. وفي الصباح الباكر..تأنقت جيدا..وكانت الابتسامة لا تفارقني ..كان هناك سعادة حالمة ترفرف بجناحيها على ظلالي المشتاقة جدا لحضوره... ...كنت متهافتة أسرع في خطواتي على مكان اللقاء حتى لمحته..يرتدي قميصا صيفيا مشبعا بزرقة السحاب وبنطالا من الجينز . كان يبدو فارسا من الطراز الذي أحب...لكني لم أرها ..أين هي ؟ امتلأت نفسي بالفضول ..اقتربت حتى لاحت لي أشباح كارثة وشيكة القدوم!!

- ماهذا ..أمعقول؟

هكذا زفرت أنفاسي تلك الكلمات سرا بعد أن رأيت وشما على ذراعيه..يحمل كلمات صادمة...

(3)

كانت تلك الكلمات كثيرة..لكني لم أجيد قراءة إلا كلمة واحدة (لا إله)
-يالهي..كيف سأتصرف الآن؟!!
هكذا قلت في نفسي ..هل هو ملحد إذن ؟!!
حرصت أن أبدو طبيعية تماما وأن أستقبل الأمر بثبات وتقبل..تعلمت ذاك من جدي رحمه الله..كان الشيخ العظيم ذو الأصول الباكستينية...يأتيه الناس من كل فج للاستزادة منه..وكنت أسمعه بنفسي يدخل مع ملاحدة بكل ثبات في نقاشات حاد..لم يكن الإلحاد منتشرا هكذا..كما هو الحال في أيامنا تلك...بل كان متخفيا بين طيات الصدور..وكان لديه من رحابة الصدر وبشاشة الوجه..ماجعل كثيرا من قصدوه يعودون إلى ملة التوحيد.
من داخلي..كنت أتخبط في براكين من الفزع والخوف..لم يكن إلحاده هو السبب..لكن المسألة تكمن في التضليل..لماذا قصدني لأشتري حجاب الرأس لزميلته تلك..ولماذا لا أراها الآن معه؟!!ولماذا كشف عن ذراعيه بقميص صيفي..لأرى كلمة هو يعرف مسبقا أنها ستصدمني..لم أكن مطمئنة تماما...لوهلة شعرت أن خلفه سرا كبيرا..كما أن شعره بالأمس كان معقوصا للوراء..ليضرب مثالا للشاب الهادئ الرزين..اليوم أراه منسدلا..ليبدو لي كواحد من هؤلاء الذين يتبعون أحدث صيحات (الروشنة) في العصر الحديث.
انتفضت من أفكاري تلك..لأهدئ من روعي..في النهاية على أن أتعامل معه بسلام ومحبة..فهكذا يكون المؤمن مع كل من اختلف معه...فنحن نحب روح الله في كل أنسي ولم يكن كفره لينسينا أن الله حيا بداخله!
ظلت رأسي تتأرجح بكل تلك الأفكار..وأنا متجهة إليه..حتي افتتح حديثه قائلا:
-مرحبا ..كيف كانت ليلتك بالأمس ؟
-جيدة جدا..وأنت؟! هكذا قلتها بثبات
-كانت ليلتى طويلة..لم أنم إلا في ساعة متأخرة من الليل.إن الصديقة التي حدثتك عنها بالأمس كانت متعبة..لم أشأ أن أؤجل معادنا المرتقب..فهل تقبلين أن تأتي معي لأجل تلك الخدمة الإنسانية..نشتري سويا أنا وأنت تلك الهدية؟!!
أغرتني الكلمات (أنا وأنت)... لوهله شعرت بنوع من الحميمية التي لم يقو

قلبي الضعيف على مقاومة إغرائها...كان لأدبه الجم..شيئ من تأثير السحر في نفسي...وكان المول على بضع خطوات من هنا..قلت لنفسي لما الخوف؟!! سأشتري تلك الهدية وسأقتضب في حديثي قدر الإمكان!!

-لابأس إذن ..على أن أعود بسرعة ..فلا أريد أن أتاخر على البيت ...هكذا قلت بنصف ابتسامة

ابتسم لي..ثم مشينا إلى المول..كانت نسمات الهواء العليل..تلاطفني..وكأنها تبعث لي بمواساة ربانية لتشد من أذري..وكأني أشعر أحيانا أن الله يرسل تحيته لكل عباده في كل أنعمه من الطبيعة حولنا..في الزهر حين يتفتح..في الشجر الأخضر حين يجيد حديث الظلال..وفي الشمس التي وحتى أن اشتد لهيبها...تظل نورا يزيح عن النفس ظلام ليل طويل وتحثها على العمل ! في القمر حين يكون مأوى لكل العاشقين والحيارى والتائهين والمتعبين من أشغال دنياهم ! لكن أبصارالعباد لا ترى ! ولا تسمع آذانهم حسيس وصاله !

وصلنا للمول أخيرا..دون كلمات..لم أعرف هل هو متوجس مني أو أنه يقصد ذلك؟!! أم أني شردت كعادتي في طبيعة أرض الله!

لكني وجدته يستأذني قبل البدء...قائلا...

-حسنا ليلى...لقد فاتتني صلاة الفجر اليوم..و استيقظت متأخرا عن معاد نومي وكنت متعجلا لألحق بك .فهل لي أن أتركك في جولاتك السريعة..ريثما تشترين الهدية..فأصلي ثم أعود إليك؟!!

ماااااااااااااااااااااذا..هكذا صرخت نفسي وزلزلت رأسي من جديد!

(4)

تضاعفت دهشتي..وتضاربت مشاعري..حينما عرفت بوجهته تلك، هو يصلي اذن؟!! لكن ماحكاية ذلك الوشم على
ذراعيه؟!! هل هو موحد بالله بحق أم أنه غارق في سراديب الإلحاد؟!!
يالهي..كن معي لتنتهي تلك الرحلة سريعا!!
.أفقت من شرودي ذاك على صوته وهو يقول:
-حسنا ليلى يبدو لي أنه ليس لديك مانع..أنا ذاهب الآن للصلاة...سأنتظرك في ذلك المطعم في الدور الثاني بعد انتهائك من الشراء..قال ذلك مشيرا إليه...ثم استكمل قائلا:
.حقا أنا لا أعرف كيف أشكرك !!
لمحت في عينيه نظرة امتنان..قابلتها بنظرة تساؤل..فرأيته يبتسم لي كأنه يطمئني لكن شاب ابتسامته تلك بعض المكر ربما.. لا أعرف ، ودعني ليتركني مع رحلتي تلك...لم أكن متحمسة كثيرا ..فقد كان هناك صداعا كاد أن يفجر رأسي مع كل تلك الأحداث المتلاحقة
لكن خيالي أبي ألا يرسم ابتسامة على وجهي ، لتكون سلواي في رحلتي تلك..فتذكرت جدي رحمه الله..حينما اشترى لي حجابا للرأس أول مرة، كنت قد طلبته منه بعد الحاح شديد..كان مهتما أن أعرف الله بقلبي ويقيني، و يخبرني بأن الله محبة..وأن أوامره ونواهيه، لابد من أن تكون عن استقبالي لإشراقة تلك المحبة في قلبي,فلم يكن الله معذبا ولا قاصدا لتعاسة عباده أبدا
كان المول مكونا من خمسة أدوار..حينما تقرر أن تدخله..تصدمك رائحة القهوة في الدور الأرضي..ثم لا تلبث روائح المطاعم والكافيهات أن تجتذبك إليها في الدور الثاني..ثم في الدوري الثالث و الرابع كانت هناك المتاجر التي ستكون إليها وجهتي تلك..ثم قاعات السينما وألعاب الأطفال في الدور الخامس والأخير..
وقد كان مكتظا كعادته بالعديد من الناس كما هو الحال دوما في أيام العطلات..لم أكن أحب الزحام كثيرا..لكن قلت في نفسي ..أنه لا بأس أن أتحامل على نفسي ولو قليلا في سبيل خدمة إنسانية لأحدهم ..
حينما صعدت إلى الدور الثالث..رأيت لافتة على إحدى المتاجر ..كتب عليها..(اتق شر من أحسنت إليه)..ارتفع حاجباي إلى الأعلى..كنت أؤمن

بتلك الإشارات التي أراها من آن إلى أخر...فهل كانت تلك رسالة من الله ؟!!

لكن ذلك لم يكن ليثنيني عن مهمتي التي شارفت على الإنتهاء فعليا حينما دخلت ذلك المتجر المفضل لي...وقعت عيناي على حجاب يحمل طابعا كلاسيكيا وملمسا ناعما ..وقد كان وردي اللون.. توسمت فيه روح الأناقة....حتى شعرت أنه مصمم خصيصا لكي يتسنى لمن يرتديه أن يرى روح الله المحبة للجمال فيه...

و كما وقعت عيناي..وقع اختياري عليه ليكون هديتي إليها..فهل ستفرح بها؟!!

تركت تساؤلي ذاك له..عندما عدت إليه..كان يبدو أميرا في عرشه ، أمامه فنجان من القهوة..لمحت ابتسامة خلبت عقلي كشفت عن أسنانه الناصعة البياض...ولو كنت في حالة غير التي كنت بها..كانت ستلفني حمرة الورد وأطرق برأسي كعادتي البلهاء حينما أنجذب إلى أحدهم..لكني كنت في حالة حيرة سببت لي مزاجا سيئا ومظهرا مزريا لم يفارقني وأنا أقول له:

-لقد اشتريت هديتك لها ..أتمنى أن تعجبك

-بالتأكيد ستعجبني.هكذا قال لي دون أن يراها..

-حسنا هل لي أن أمشي..فقد وعدت أمي ألا أتاخر!!

-ألا تجلسين..ريثما ترتاحي أولا؟!!

شعرت أن بعينيه نظرة رجاء..لم أستطع مقاومتها..ينجح هو دائما في أن أنقاد له بكل ذلك الضعف في قلبي تجاهه!

-أعرف أنك محاصرة بتلك الأفكار التي تسألك عن ماهيتي...قال لي غامزا

-نعم؟!!!! قلتها في تعجب

-تريدين أن تعرفي أي انسان أنا؟! أنا الموحد الذي يصلي لله ويضرب مثلا لسماحة الإسلام في تصرفاته؟!! أم ذلك الملحد الذي يفتخر بوشما على ذراعيه كاشفا عنه بكل سرور؟!!

كاد قلبي أن يقفز من مكانه..لوهلة شعرت بوجه الفضول يخرج لي لسانه ليستفزني من جديد.

-حسنا ليلي..سأحكي لك كل شيئ من البداية...لكن قبل البداية..أود أن أخبرك شيئا.....ليس لي صديقة بانتظار هديتك!!!

(5)

نعم!!!!!هكذا صرخت من جديد .

-كما سمعت..لا توجد صديقة بانتظار هديتك....تلك كانت حجتي حتى يتسنى لي أن أتحدث معك

-ولماذا أنا؟ ولماذا تلك الطريقة اذن ؟

-لما أنت؟....سؤال ستعرفين اجابته فيما بعد...أما عن الطريقة فلأني أعرف أنها الطريقة الوحيدة لاجتذابك !!...قالها وكأنه يعرفني منذ زمن .. رانت لحظات من الصمت..بدا عقلي ..وكأنه يحمل حمما ملتهبة..تقذف من أقصي اليسار إلى أقصي اليمين...كنت أشعر بنار الفضول تأكل أحشائي..لماذا يتحدث بكل تلك الثقة عني؟ !! شعرت فجأة بدوار يملأ رأسي...ثم اضطراب في الرؤية ...حتى بدا لي أني سأغيب في ظلام دامس عن قريب!

لمحت القلق في عينيه الدافئتين حينما قال لي:

-ليلى هل أنت بخير؟

-لا بأس..

. -أنا أسف جدا..لقد أرهقتك كثيرا على مايبدو ..بامكانك أن تستريحي...سأوصلك حتى المنزل...ثم نكمل حديثنا في أي وقت!

-ليس قبل أن تخبرني؟

-أخبرك بماذا؟

-ماشأني أنا بكل ذلك وماهو المبرر كي استمر في أن اسمع حكايتك السخيفة تلك ؟

-سأخبرك بكل شيئ ليلى...لكن في وقته

-لا... أريد أن اعرف الآن

-قطتي الصغيرة كما هي دائما...متمردة...وعنيدة...قالها ضاحكا نظرت إليه بغضب...فلوهلة شعرت انه تجاوز حدود القرب معي...نحن لم نعرف بعضنا الا بالأمس..وينادني قطته الصغيرة...هممت بالانصراف...فوجدته يستوقفني قائلا:

-جدك ذو الأصول الباكستانية...سوف يغضب كثيرا

جدي... لوهله ترقرت الدموع في عيني كما هو حالي حينما أتذكره دوما ...نظرت اليه وقد طغت دهشتي على دموعي:

-ما شأنك انت بجدي ومن أين تعرفه؟

لم يجبني فقط اكتفي بنظراته الماكرة هذه المرة..

كانت الحيرة تلفني. فكيف لي أن أثق بغريب لا يمت لي بصلة و أغوص في حكاياته ..وأسمع رغيا لا يسمن ولايغني من جوع ....لمجرد انه يعرف جدى او حتى لأرضي فضولي ؟ !!

شيئ ما يستفزني بهذا الرجل...يدفعني أن استمع له...ضاربة عرض الحائط بحيرتي...وتاركة العنان لمشاعري التي تود الأنس بحضرته أكبر وقت ممكن....وكيف لا وهو الآسر بحديثه ..و.يملك منه مايجعله (حلوا) على رأي السيدة فيروز في عيني!

لم أجد نفسي الا وأقول له مستسلمة في نهاية الأمر

-تفضل بالحديث اذن..

-عليك أن تعلمي بعض القواعد قبل البدء...

-ماهي ؟

-أولا: لن أخبرك أنا موحد أم ملحد ستعرفين ذاك من السياق الذي سترويه عني حكايتي، ثانيا أمامك عدة محاولات لتعرفي اجابة السؤال..حينما توشك على النفاذ سأخبرك من باب التنبيه ...ثالثا: فيما يخص جدك ستعرفين في نهاية الحكاية ...ماعلاقته بكل ذلك...

تمتمت ساخطة ومرددة بعض الكلمات التي تلعنه في سري (.تبا لك ايها المغرور..ليتني أستطيع تكسير أنفك هذا).. هي عادة تنتابني كلما أغتظت من أحدهم...

-ها ماذا قلت؟

-حسنا... أنا أوافق

نظر الي .....ولا أ عرف لما شعرت باساور من الخوف الممزوجة بالحنان في تنك عينيه المفعمة بالحياة...

-حسنا ليلي...سأحكي لك القصة غدا ريثما ترتاحي الليلة..سأنتظرك أمام الجامعة كاليوم...بعد انتهاء المحاضرات...على شرط....لا تسأليني إلى أين سنذهب...لاني لن أكون متحضرا وأشفي غليلك بالاجابة!

ودعني بعد أن عرض علي توصيلي إلى المنزل...لكني رفضت....استقيلت(تاكسيا) رغم قرب منزلي من الجامعة..كان رأسي

مثقلا بأسئلة لاحصر لها طوال الطريق....وحينما دخلت المنزل...كانت كل رغبتي في أن أهوى بجسدي على فراشي...متحررة من أي فكرة أو ذكرى.....لم تفلح رائحة الفطائر التي تحضرها أمي..ولا ولا أسماكي ذو الألوان الزاهية القابعة في حوض السمك والتي اعتدت التحدث لها عند العودة... ولا عصافير الكناري والتي تشجي غرفتي بتغاريدها في أن تثنيني عن النوم.....لكن حقيبتي وقعت فجأة على الأرض ..وانسالت كل الأشياء منها....حتى لمحت شيئا لم تألفه عيناي...

يالهي ما هذا!!

(6)

كان الشيئ هو قرآنا صغيرا...اندهشت..فمن أحضره إلى هنا؟ ! و من يعرف أني مغرمة بتلك المصاحف الصغيرة... فمنذ صغري وأنا أتفنن بتجميعها..فهناك شيئ يشعرك بالأمان لمجرد أنك تحمل نفحة من كلام الله معك...في اعتقادي أن هذا هو السبب الأول لأن يحمل الناس تلك المصاحف حتى ولو هجروا قرائته..احساسهم المفقود بالأمان يصرخ طالبا الأنس بكتاب الله

سألت نفسي هل من الممكن أن يكون هو؟...وهل تكون هذه احدى المحاولات التي تكلم عنها؟! لكن كيف وصل إلى حقيبتي اذن ؟!

نفضت عن رأسي كل تلك الأفكار..فما الجدوى من الإنشغال بأمر سيقصه علي باكرا؟!!

كنت مرهقة..كان ارهاقي ذهنيا قبل أن يكون بدنيا..فأنا مصابة بلعنة التفكير التي تنتابني من آن إلى أخر..داء لطالما حاولت التخلص منه...لكنه بات يؤرق على منامي..ويحرمني من الإسترخاء

وضعت المصحف على مكتبي الصغير..وألقيت بنفسي على الفراش..أتقلب يمنة ويسرة..حتى لم أعد أدري بنفسي فذهبت في غيبوبة طويلة...

رأيت نفسي أمام شخص يبدوا ميتا في تابوت..والدماء تغطيه من كل ناحية..وأنا أبكي بحرقة وعنف...ثم صرخ هذا الشخص قائلا..(لماذا تخليت عني)

أفقت من الحلم سريعا..كان الخوف يلفني..أنفاسي المهترئة كانت شاهدا على ذلك...كانت الساعة السابعة صباحا..وكان الصداع عنواني..اغتسلت سريعا..ثم ارتديت ملابسي...وتناولت فطوري على عجل..وودعت أمي التي سألتني:

-هل أنت بخير؟

-نعم...هكذا أجبت.....لم أعرف كان تبدو لي وكأنها تود أن تقول شيئا أو أنها تعرف شيئا...لكني لم أتوقف عند ذلك كثيرا..كنت متعجلة ومتحمسة أن أبدأ يومي لأقابله

حينما غادرت البيت..وجدت عم شحتة البواب في انتظاري..كانت الشقة التي نعيش بها في الدور الرابع ..في حي الزمالك...قابلني بوجهه البشوش وشاربه الكث وجلبابه الفضفاض وملامحه الصعيدية قائلا:

-أتاني شخص يحمل هذا الخطاب ..وطلب مني أن أوصله إليك..
-ألم تسأله عن اسمه؟
هز رأسه نافيا...كان أفضل شيئ في عم شحتة أنه لم يكن فضوليا كعادة آخرين يعملون في نفس المهنة...كان بسيطا..أمينا..مما أهله أن يعمل لدينا عشرة أعوام...هو من أصحاب الونس الخفيف كالنسمة العابرة..لم يشتك منه أحدا ولم يشك لأحد عن ضيق حاله...تلمح العزة في عينيه وكأنها صاحبته في دنياه
فتحت الخطاب...وكان يحمل رسالة على مايبدو...
(ليلى..أنا محمد..أنا آسف لن أتمكن اليوم من انتظارك عند الجامعة...لكننا سنتقابل في المكان الذي تبدأ منه الحكاية.....مقابر السادس من أكتوبر...سأبعث اليك بسيارة تقلك إلى هناك..لا تخافي سأكون موجودا في استقبالك) صرخت قائلة:
-ماذا...مقابر ؟
شعرت بدوار فجأة ...وضربات قلب سريعة..ورعشة في يدي..وكأنني سأموت حالا...إنها حالة ...(panic attack) ذلك الهلع الذي يلازمني عند ذكر الموت... انقطع عني منذ فترة والآن على مايبدو سيتجدد عهدي به...
لم أزر مقبرة منذ وفاة جدي..كان الأمر مريعا أن أقهر كل ذلك الخوف..لأذهب لأستمع إلى تلك الحكاية السخيفة...شتمته في سري...ثم أرجئت التفكير بالأمر إلى مابعد المحاضرات...ذهبت إلى الجامعة...
يلازمني إحساسي بالبرد واصطكاك قدمي وتخبط أسناني..كان عقلي في رحلة من التوهان..لم أع شيئا مما قيل في المحاضرة..كنت على وشك الإنهيار...نوبات الغثيان التي انتابتني لم أكن لأستطيع اكمال المحاضرات بها..فذهبت إلى الكافتريا لأشرب كوبا من الشاي الأخضر..فكانت تلك عادتي كلما انتباني القلق من شيئ ما مع قراءة في كتاب يحمل عبقا من التاريخ الذي يندرج ضمن اهتماماتي فاتقمص الشخصيات التاريخية وأنعزل عن واقعي...لكن ومع كل ذلك لم يفلح أي شيئ في إزالة الأعراض
-تبا لك أيها البغيض..هكذا شتمته في سري مرة أخرى وقد أقسمت أني سأقطع علاقتي به فور انتهاء الحكاية

ظللت على ذلك الحال حتى حان المعاد المنتظر...رتبت أوراقي وحاولت لملمة قوتي وألبستها أثواب العافية فلعلي أستطيع أن أصمد في خطواتي القادمة...تظلني روحين احداها تدفعني للمغادرة وترك كل شيئ وأخرى تحثني على المضي دون خوف...فمادام الله معي ..لا شيئ يؤذيني.

ذهبت إلى حيث المكان..أمام الجامعة الذي التقينا فيه قبلا..وكلي أمل أن ينتهي اليوم على خير...تذكرت أنه لم يخبرني بنوع السيارة ولاكيف سيعرفني السائق..فزاد قلقي...لكن قطع نموه سيارة من النوع الفاخر..تبدو من ماركة الجيب على حسب معلوماتي..فلم أكن أفقه كثيرا في ماركات السيارات...هبط منها شخص يرتدي نظارة سوداء وحلة سوداء أيضا...وملامح تبدو عليها الجدية..وجسد قوي البنية ليقول لي:

-آنسة ليلى...تفضلي السيارة بانتظارك..

كدت أتراجع لولا أني رأيت خيال جدي....فتماسكت..وارتجلت السيارة... أعيش أنا دوما بروح المغامرة...كانت تلك الروح تدفعني إلى فعل اي شيئ مهما كانت خطورته...مدامت أنشده...وهذه كانت السبب في أن أمضي في تلك الرحلة العجيبة تلك...

نجحت مقاعد السيارة الوثيرة وتلك الموسيقي التي تصدر من الكاسيت للموسيقار العالمي ياني في أن تهدأ من روعي قليلا...كانت المسافة طويلة...لكني تسلحت بالصبر وطول البال على الملل حتى أصل لمبتغاي...حتى بدأت في الدخول إلى منطقة المقابر ..

.كانت بدايتها صحراء من كل جانب...مخيفة حتى حدود الثمالة..وطريق منعزل تماما..أضفي على صوت الموت رهبة...

أوقف السائق الموسيقي فجأة...لم أعرف هل أوقفها احتراما لأرواح الموتى أم أنه يخطط لشيئ أخر؟!

ازدادت دقات قلبي ثم أوقفني السائق أمام مدفن كبير فسيح ...بدا لي من النوع الراق...يبدو ملكا لعائلة غنية..ولافته كتب عليها (مدافن آل الرشيدي(

-حمد لله على سلامتك آنسة ليلى...تفضلي.... هكذا قال لي مبتسما...

-أتفضل إلى أين؟ قلت له متسائلة

-الأستاذ محمد بانتظارك هناك...وأشار إلى المدفن

موجات الخوف تنتشلني من جديد... يالله مالذي جاء بي إلى هنا؟

فتحت باب السيارة..وغادرت بخطواتي الحذرة إلى هناك..ثم سمعت بوقها يعلن عن الرحيل ..كاد صوتي يستغيث بالسائق لأعود من حيث أتيت...لكنه لم يتجاوز حلقي...

كانت بوابة المدفن مفتوحة...دخلت منها....لكن هالني ما رأيت حقا.....

أمعقول؟!

(7)

لم أصدق ما رأيته...

كان هو هناك...تغشاه الدموع...يبكي بحرارة... وكان حارس المدفن قد جلس بجانبه يربت على يديه الضائعتين....وكان بجوار الحارس مصحف يشبه الذي كان في حقيبتي ..هل تلك علامة أخرى تؤكد توحيده بالله ؟! أم أن المصحف يخص الحارس إذن؟ !

وقفت متأملة المكان ...كان المدفن عبارة عن ساحة كبيرة تظللها أصائص الزرع التي أكسبتها رونقة مظهر يشع سلاما لمن حوله .. ومن أعلى كان هناك (تندة) تحمي الرؤوس من أشعة الشمس الحارقة. .كان على مايبدوا أنه شيد لبيبدو شديد الفخامة... المدفن حقا كان أشبه بناد صغير ولولا أني أخاف الأرواح...لكنت جعلته مكان استجمامي وأنسي...واني حقا لست أعرف ما الذي يدعو الناس لاقامة مدفن فاخر؟! في حين أن أجسادنا كلنا تتساوي عندما تلامس التراب.. هل طلبا لأنس يخفف عنهم وحشة الموت؟ أم أن ذلك لأجل مظاهر كاذبة يحسبون لها ألف حساب حتى بعد موتهم؟ !! مشيت بخطوات متأنية يلازمني الفضول لأعرف ماسر تلك الدموع؟! هل المقبرة لقريب له؟...وهل حقا سيحكي لي قصته وهو في تلك الحالة؟! ماهي إلا ثوان...ووجدت الحارس يشير إلي بالتفضل....لم أجد مفرا من التقدم...رغم خوفي الذي ربما هدأ قليلا في حين هم الحارس بالرحيل وفي يده المصحف الذي كان يجاوره....فهل يخصه اذن ؟ !

.كان محمد قد طأطأ رأسه إلى الأرض...وكأنه في واد آخر..وقفت طويلا...ثم ألحت علي أقدامي أن أجلس بجواره على كرسي صغير أعده لي الحارس مسبقا..كان الصمت بطل الأجواء...لم أشأ التكلم حتى يبدأ هو...

-كيف حالك ليلى؟! هكذا افتتح حديثه معي بصوت حزين بعد أن تخفف من دموعه

-بخير ....هكذا أجبته

-أنا آسف لاني لم انتظرك امام الجامعة كحال الاتفاق...كان لدي عمل ما لانجزه. قبل أن أقابلك..هل كانت رحلتك موفقة؟

كانت لعينة أيها المعتوه...هكذا قلت في سري لكني أومأت رأسي بالموافقة..

-لعلك تسأليني الآن ماهو سبب احضارك ذلك المكان اذن ؟.... .!

هل تعرفين قبر من هذا؟

-من؟

-أمي...التي لم أكن لأكون لولاها....لكنها غادرتني.....من رحمها بدأت الحكاية !

نظرت له...وكأني أشجعه على أن يكمل لعل ذلك يخفف عنه

-أمي كانت انسانة وديعة..تظللها مواطن العطف...وتفيض منها الرحمة... كانت رحمها الله تعمل ممرضة من حين إلى أخر...وكانت محبوبة بحق من كل الناس.علة الضمير تلازمها أينما رحلت...

حينما تقدم لها أبي وهي ابنة الثامنة عشر و قد كان تاجرا ميسورا..لم يصمد أهلها أمام توسلات أبي المستمرة بالزواج...فخالها الذي تكفل بها بعد مرارة اليتم يرتوي من الطمع أنهارا!

تعهد أبي أمامه بتوفير كافة الامكانيات اللازمة للمعيشة والزواج.. ...ذاك الخال لم يهتم إلا بالنقود التي ستعود عليه بمنفعة عله يجد شيئا يجنيه من تربية أمي...

و كان يشعرها دوما أنها أثقلته بمتطلباتها...فبين الحين والحين كان لا بد له من تذكيرها بصنيع نعمته واحسانه !

فلم يكن لأمي...سوى الاستجابة لتلك الضغوط المستمرة بالزواج...لم تكن تعرف أنها ستهرب إلى سجن أكبر لروحها الخضراء ....

تزوجت أمي من أبي...لتبدأ مسلسلات التعذيب والألم ...

ساد صمت ليس بقليل...ثم قال موجها عينيه إلي:

-كان أبي مريضا ليلي...مريض نفسي..تلك السيكوباتية كانت دائه ...تعرفين ذلك الاضطراب بحكم دراستك على ما أظن ..ذاك الذي يبدأ باظهار الضعف والنعومة حينما يود الشخص الحصول على شيئ معين .ليكون مقدمة لشيئ أكثر سوء عند الوصول إلى مايريد...يتقن حينها فنون الأذية وألوان الشر...

وكان سلوكه في فترة الخطبة ناعما مع الوعود بالهناء والسعادة الأبدية .... ثم كشف القناع عنه بعد الزواج لشخص لايمت لما ظهر به بأي صلة!!

وكانت صدمة أمي من الحياة...اكبر تلك المرة...فلماذا يجتمع الظلم على انسان بعينيه دون أخرين؟...لماذا هي وحدها دون الغير تقع فريسة لليتم..ومن ثم لزوج لايمت للانسانية باي شيئ ؟!

أبي المدمن للكحول...والذي يدخن الحشيش من آن إلى أخر....كان يتفنن بترك أعقاب السجائر تنطفئ بدفئ جسدها...كان اللعين يغرسها حتى اللحم....كدمات هنا وهناك من أثر يد لا تعرف الرحمة ..ودوائر تلبس أثوابا حمر على جسدها الطاهر....كل يوم على هذا المنوال..وصراخات مستمرة من أمي...تستغيث بالجيران ..او بالخال الجشع...لكن لا فائدة ..

الكل خائف من بطشه وجبروته....لم تستطع طلب الطلاق...فمن أين لها بقوت اليوم يكفيها وهي لم تتحصل إلا على الشهادة الابتدائية؟

ساد صمت أطول تلك المرة...فعلى مايبدوا أنه شرد قليلا...لكنه أكمل بنظرة لم تبد لي مريحة أبدا قائلا:

-تعرفين ليلى...أنا أشبهه كثيرا!

(8)

ساد صمت أطول تلك المرة...فعلى مايبدوا أنه شرد قليلا...لكنه أكمل بنظرة لم تبد لي مريحة حينها قائلا:

-تعرفين ليلى...أنا أشبهه كثيرا

زادت دقات قلبي....ونظرت إليه بمزيج من الدهشة والفزع في آن واحد...هل علي إذن أن أخشاه لأنني معه في هذا المكان وحدي؟!....تجرأت لأسأله أخيرا بعد دقائق من ارتجاف أناملي وطوفان الفزع الذي انتابني:

-ماذا تعني؟

-لاشيئ ليلي...

أحببت فقط أن أخبرك بطريقتي أن عليك ألا تثقي بي كثيرا...فانا أخشى أن أكون مشبع بتربية هذا الرجل..تعرفين...حينما وعيت في الرابعة من عمري ..كان أول الوعي...أصوات من الصراخ....لم أفهم في بداية الأمر...لكن الصورة بدأت في التشكل لدي.... أبي يضربها فلا يتركها الا وهي تنزف دما...يتكررا المشهد مرارا...وأنا اسألها:

•لماذا تتحملين كل ذلك يا أمي؟!

•لأجلك ياصغيري...هكذا تجيبني هي بعينيها المثقلة بالأحزان

لم أنس يوما...كان أبي...عائدا من العمل... كثور هائج...تم فصله توا لانه لم يكن أهلا للعمل المكلف به...فكيف يتقن السكير صلاة الالتزام؟

سمعته يناديها بصوت انتزعت منه نغمات الرحمة:

-ياسناء انت ياوجه الشؤم .. أين الغداء ؟! ألم تحضريه بعد ..لعنة الله عليك منذ أن عرفتك لم أرى نعيما قط!

-أنت ترميني بكلمة أنت منبعها!

كانت تلك أول مرة تثور أمي عليه...لترد الإهانة بالإهانة....ليصيبه سوط كلماتها...

فصب عليها غضبه وكل لعناته....معتديا عليها بوحشية لا تسع آدميا..

سمعت توسلاتها ونداءاتها المستمرة له أن يرحمها. لكنه كان مستمرا في

الاعتداء عليها.. ضعفها كان يستفزه أكثر وأكثر فكان ..حتى سمعتها تقول تحت كل تلك الأنقاض بصوت واهن:

-أريد الطلاق أرجوك

ضحك أبي ...فزاد صاعه صاعين...فهل يفلح مع ذاك شدة أبدا؟...انهال عليها بالضرب مرة أخرى...حتى سمعته يقول:

-لاتذكري مثل تلك الأمور مرة أخرى...وإلا كان مصير ابنك إلى الجحيم .

ثم فجأة ..أشار إلي بأصابعه مهددا اياها وكدت ألا أسلم من عذابه.. ...فتحاملت نفسها إلي حيث أقف...محتضنة إياي من خلفها ...لتحميني منه..لتتلقي هي العذاب بدلا مني...

وظل ذاك اليوم عالقا بذاكرتي كمشهد تم تكراره مستقبلا.....عرفت أني شوكة في خاصرها....وأنها ملاكي الحارس ...كرهت كوني ذكرا...لوهلة تمنيت أن أكون أنثى مثل أمي.

بدأت أعي معاني الظلم..فلما علي أمى أن تتحمل كل ذلك الأسى والحزن؟...لم عليها تواجه الحياة بنفسها المثخنة بالجراح؟!...أين العدل ؟! وأين الله بعد كل ذلك..

*زاد صدى الكلمات في نفسي...حينما قال (أين الله بعد كل ذلك) ...فهل ذاك اشارة إلى الحاده ؟!

تمنيت أن أخرج من المكان سريعا...فكنت لا أتحمل أن أسمع عن الله اي افتراء يتجني عليه...لكن فضولي دعاني أن أكمل الطريق..لعل الحكاية لم تنتهي بعد..ولعل النور يكتمل عند أواصر النهاية...ولأن شغفي بالتوحيد يخبرني أستمر..فاشرت له:..

-أكمل

-كنت أندهش حين أراها تقوم الليل..متبتلة إليه بالدعاء..وراجية منه أن يغفر لها...عن أي شيئ يغفر لها؟ وهي الموحلة بمرارات الاهانة؟! وسراديب الظلام

كانت حريصة على أن أصلي...لكني كنت أصلي من أجلها هي...لعلها

ترضى...ولعلي أبعث في نفسها الكثير من السلوى بتقربي من الله....لم أعد أشعر بالصلاة...لم تشفي غليلي...لم تروي روحي المشتاقة إلى عدل الله... كنت أسبح واستغفر...لكن كيف للغفران أن يزرع محبته في قلبي اذا كنت لا أراه في دنياي ؟!

حتى كان يوم دعتنى أمى أن أصلي معها صلاة العصر
...توضأت..وتوجهت لله...وقلت:
-الله أكبر...
فشعرت بالنفاق يتسلل إلى روحي وبدأ النفور من الصلاة...فكيف أقول أن الإله أكبر وأنا أراه يترك الناس يحملون أثواب المعاناة....والقلوب تسبح في هوة من الأحزان ؟!
كيف للصلاة أن تكون حقيقتي...وأنا لا أشعر بخالقها...ولا أرى عظمته في كل وقت!!!
لماذا أصلي؟! وأنا هنا قابع على تلك الحال..لا استجابة...لا حياة...لا شغف...لا أمل ..اذا كان الله موجودا فلم يتخلى عنا؟!
لم كل ذلك الحضور الباهت؟ وهو يستطيع أن يفعل أكثر؟

*زادت دقات قلبي..وزدات حمية دمي...أسمع حديثه ..فاثور في داخلي...فلم يكن الله معذبا كما عرفته أبدا..والأصل في اي ابتلاء هو الخير..لم تكن الدنيا دار جزاء..انما هي دار عمل ..الله اختار أن يختبر عباده حتى يتبين المؤمن من غيره...فكيف يكون الجزاء دون ابتلاء ؟!..لكنني أمنت أن علي تقبل محمد حتى النهاية....كيف أحساب أحدا على حديثه...وهو في طور المعرفه بالله؟! ومن أنا لأحاسبه؟!! ثم ان الحكاية مازلت تحوي أسرارا بعد كما يبدو....هكذا قلت في نفسي

-هييه ليلى...صار لي من الوقت دقائق أتحدث إليك وأنت لا تجيبين...فيما شردت إذن؟!
-فقط أحاول استيعاب حديثك ليس أكثر ..
-هل ألمتك؟

-ربما..

-أنا أسف.... المعرفة أحيانا تستوجب الألم ليلى....إذن هل أكمل أم أؤجل الحديث لحين آخر؟

-أكمل...هكذا قلت بثبات

سحب أنفاسه ...ثم زفرها ببطء ليقول:

تلك الأفكار ظلت تؤرقني حتى بلغت السادسة عشر من عمري... حتى كان اليوم الذي تزلزلت فيه حياتي من جديد! لتصدع بمعان لم أتخيل يوما أن تأت إلى خاطري ووجداني..وجدت نفسي في مفترق الطرق..فالى أيهم سيكون مفري وسكني ؟!!!

(9)

سحب أنفاسه ...ثم زفرها ببطء ليقول:
تلك الأفكار ظلت تؤرقني حتى بلغت السادسة عشر من عمري... حتى كان اليوم الذي تزلزلت فيه حياتي من جديد! لتصدع بمعان لم أتخيل يوما أن تأت إلى خاطري ووجداني..وجدت نفسي في مفترق الطرق..فالى أيهم سيكون مفري وسكني ؟!!
عدت من المدرسة في هذا اليوم لأجد أمي.. في غرفتها.... تعد الحلي للبيع...ولم تسلم ملابسها أيضا بعد أن ضاق الحال ... إذ أن أبي قرر ألا يعمل نهائيا.. ماض في إهاناته لأمي..بعد أن أتعبه الأنتقال من عمل إلى أخر..فباعت كل ما تملكه من ميراث أبواها بثمن بخس لخالها..
.وهي العزيزة النفس ..الكريمة..التي لم تكن يوما لتسأل أحدا عن المال..ولم يعد لها الا تلك المقبرة التي كان كانت كل ماتبقي لنا من ورث أبي عن عائلته فهل الراحة على أمثالها لم تكتب إلا بعد الموت؟ !
قاطعته قائلة:
لحظة ألم تخبرني أن أباك كان تاجرا ميسور الحال؟ مالذي شرد به إلى حال الموظفين وأهوال الأعمال ؟
صمت قليلا..وبدا لي وكأنه يتذكر شيئا...لكنه قال أخيرا:
-ومالذي تتوقعينه ممن أدمن الكحول وتعود شرب الحشيش إذن؟..ينحدران بصاحبها إلى الهوية..دون تؤدة أو حذر ليسلم نفسه للاشيئ في نهاية الأمر....وقد كسدت تجارته...وأصبح بلا مال ...فيترنح من وظيفة إلى أخرى...حتى يغويه الكسل..وضعف العزيمة كحال أبي...
*بدا لي مترقبا..وكأنه ينتظر رد الفعل...لا أدري لما شعرت تحديدا أنه يكذب؟ رغم مبرراته المنطقية ؟!
في تلك اللحظة..هوي بي الصداع مرة أخرى إلى دائرة من الألم...حتى شعرت بنفسي وكأنني أسبح في ظلام دامس...
رأيت نفسي أمام تابوت من جديد...وجثة لأحدهم....
ظللت أنظر اليه...بشدة...ثم فجأة قام من رقاده..و انقضت يده على يداي...وأمسك بي..قائلا:
-لماذا تخليت عني؟!
*أفقت من اغمائتي لأسمع أنفاسي وصوت ضربات القلب يحاصرني

وأصداء الحلم لا تبرح خيالي..وقد كان محمد بجانبي ممسكا بمنديلا يحمل شيئا من عطره على مايبدو كان يحاول إفاقتي به:...

-هل أنت بخير؟ هكذا سألني..

-نعم..

-أنا أسف...على مايبدو أني أثقلت عليك كثيرا تلك المرة..

تحاملت على نفسي ثم اعتدلت في جلستي لأقول له

-لا عليك..تلك عادتي كلما توترت من أمر ما...فلا تنشغل!

-ومالذي يوترك اذن؟

-ربما الأجواء ...أو المكان...

كدت أن أخبره بأمر الحلم..لكني لشيئ ما لا أستطيع تفسيره...فضلت أن أكتمه سرا...

صمت قليلا ثم قال:

-هل نكتفي بهذا القدر اليوم؟

-لا.

-حسنا ليلى...عليك أن تعديني كلما شعرت بالصداع ...أخبريني..

*أومأت برأسي بالموافقة...بدا مهتما بي وكأنه يعرفني..أو يعرف شيئا عن ذلك الصداع اللعين ينتابني من أن إلى أخر...اندهشت لكن لم أتوقف أمام ذلك كثيرا...

-أكمل...هكذا أشرت إليه

-شعرت بالعجز يملأ بأوصالها بشدة في ذلك اليوم...وقد دفنت دموعها حتى لا أشعر بها....انتباني حدس أني حينها سأفقدها قريبا...كانت أمي أقرب الناس لروحي...تعرفين حينما يكون هناك انسان ما.هو سلواك وسرك وصاحبك...لم أعرف سواها..كانت هي الدفئ الذي يملأ أنفاسي حياة.

وقد كان...لم تمر سوى سويعات على ذلك الحال...حتى كانت (الذبحة الصدرية) تنتشلها من بين أنقاض البؤس...لربما كانت أرحم عليها من مر العيش...

قضيت أياما وليالي في المشفي...لم يغمض لي جفنا...كنت متوجسا ..خائفا...كلما ينتابني شعور بأني سأفقدها...وحين أشعر أن علي التوجه

بالصلاة والدعاء..إلى الله....يتملكني التيبس...فتصبح يداي باردتين..ووتنتقل البرودة إلى قلبي...لم أعد أشعر بالله مطلقا... واختار عقلي شأن أخر في تلك اللحظة..اختار التمرد...أن يحيا حقيقته... فبدأت القطيعة بيني وبين الصلاة...تجلت الحواجز بيني وبينها وكأنها بلغت عنان السماء...حتى بعد شفاء أمي الغير مكتمل..فهل يكتمل شفاء الزهور دون تلمس تفتحها وعودتها إلى الجمال الذي يضفي على الحياة حياة!

بدأت أسلك سلوك أبي...لم أعد ملتزما في اي شيئ أفعله وتحديدا بالصلاة...لا أعرف بالتحديد من كنت أعاقب ؟ ! خلعت عباءة التدين...ونزعت كلمات أمي من رأسي...بأن الأمان في الله وحده.....وأنه باق والكل فان...تشكلت معاني الثورة...الثورة على نفسي...والثورة على المعتقدات التي طالما حييت بها...والثورة على أمي....

وحين جاء شهر رمضان...كنت أتعمد الافطار ...أمام أمي ..وعلى مرآي العديد من الناس...فكيف يأمرني الله أن أشعر بمعاناة الفقير..وأنا الفقير إلى العطف والرحمة والمكروب بضيق حالي وهواني على أبي أقرب الناس لي ؟! كيف يأمرني وأنا والمثقل بروح أمي الكهلة التي كانت شمسا وانطفأ نورها ؟!

وكانت أمي...تنظرإلي بحسرة..وهي لا تمل من القول:

-الله يهديك

كنا نحيى بالفتات من العيش...و ضاقت السبل علينا...وجدت نفسي بدلا من أن أستمتع بحال الشباب كأقراني...ألهو في شيب يتسلل إلى روحي رويدا رويدا....

لم أجد بديلا عن القراءة...لأتخذها صديقة لي في تلك الأوقات الصعبة...لكنني قط لم أستطع التنبأ بالفاجعة التي حملتها رياحها إلي ! حينما وقعت عيناي على كتاب ما يحمل عنوانا غريبا!

(10)

كنت حينها مارا أمام مكتبة عريقة...تتفنن في إحضار الكتب العالمية والعربية ...كانت المستقر بين الحين والآخر...ألجأ إليها ...كل ما وددت أن أجد رفيقا يخلص ولا يخون.ومن ليكون أفضل من رفيقي الكتاب ؟!..وكان الكتاب تلك المرة يحمل عنوانا (وهم الإله) لرييشارد دوكنز....توقفت أمام العنوان كثيرا...لم أدر أن هناك أناسا ينكرون وجود الله في هذا العالم...زادت دقات قلبي بجنون...نازعتني نفسي أن أشتري الكتاب....لكنني لم أفعل...لم يكن لدي الجرأة....أحسست أن تمردي كان تلك المرة أكبرمن أن يستوعبه عقلي

كل خطوة أمشيها إلى البيت في طريق العودة كانت مصحوبة برعشة...وارتباك لم يسبق لي أن أراه في أوصالي.. وعقل مشتت من عنوان كتاب كان عنوان حياتي تلك الفترة.حينما وصلت...كان الجو خانقا ويشع حرارة ...لكني رغم ذلك تدثرت بالغطاء..كحال الذين يعيشون في كهوف من الثلج

كان الخوف يلفني...والمجهول يقف لي بالمرصاد...لكن ذلك لم يردعني...كنت مازلت مقتنعا في داخلي أن الوصل بالله...لم يكن ليعيد لأمي ابتسامتها الضائعة..أو سنوات عمري التي قضيتها في الشقاء...

نمت طويلا جدا...واستقيظت في ساعة ليلية...كانت أمي نائمة...وأبي المترنح في سكره في غيبوبة عقلية تفصله عن أحوال دنياه...

وحدي أنا ..تعصف بي الأفكار كمجنون هائج...لا حيلة له إلا الإنزلاق في هوة لم يدر أين بدايتها ونهايتها .

لا اعرف...شعرت في تلك اللحظة أني أريد الصلاة...ليس لأني اشتقت لله...أو لأني عدت إلى رشدي...

لكنني تعودت المواجهة...ونبذ الخوف...لم يكن لشيئ في الدنيا..أن يقنعني أن الله ليس موجودا...إلا هو..هل كان من باب تمردي أو عنادي؟! أو كوني لا أنساق لأحد؟! ربما..

لم أتوضأ تلك المرة...لكني توجهت مباشرة إلى مكان الصلاة...وجلست ...سخرت من نفسي...فكم من ليلة قضيتها هنا...وكان الخشوع فيها

صاحبي...والاستغفار ملجأي الذي أحب دوما ...
بكيت طويلا جدا....سألته دون أن تجف دموعي...وفي طيات نفسي أني أود أعرف أين الحقيقة؟..وأين هو من حياتي؟: !
-حينما قالو لي أنك إلهي وسندي وأمني...تيقنت أني سأراك في كل شيئ في حياتي....سأراك في سعادة أمي..وصلاح أبي...وفي عيش رغد أود أن أحياه...وفي قلب لا يعي إلا معان الأنس بك وحدك!
وحينما قالو لي أن أتوجه إليك بالدعاء والصلاة في كل وقت وأن أكثر منهما في الأوقات الصعبة ...كنت أتوجه بقلب موقن في الإجابة بأنك ستجيبني.
وحينما قالوا أنك وحدك المنوط بقلب تلك الأحوال من عسر إلى يسر..وأن فرجك قادم لا محالة...انتظرت وكلي أمل في غد أفضل لأنك فيه...
أنا الآن أود أن أعرف أين أنت؟ !
أين أنت من مظلمتي ؟ !
أين أنت من أمي التي تعيش كمسكينة لا يطيب لها العيش أبدا؟!
أين أنت من أبي..لماذا لا تعاقبه أو لعلك تقبض روحه...فلا يعود لظلم روح بريئة مثل أمي؟!
أين أنت مني؟! لماذا أنا لا استمتع كحال الشباب بحياتي؟!..لماذا لم صار الشقاء ظلي ؟!
لماذا لا أراك في كل تلك الحروب والشرور...يقتلون فيها الأبرياء...وينتصر فيها هؤلاء القساة القلب!
لماذا لا أراك في دموع طفل فقد أمه أو أباه..أو في مريض تثقله بأعراض مرضه وغيره أصحاء يتمتعون بجسد كما خلقته لهم منذ البداية؟!
أو أراك في فقر يقود أصحابه إلى الجحيم...يعيشون بالقليل...وهناك من يتمتع بخير أرضك؟!
أين أنت من تلك القيود التي فرضتها علينا...ماحكمتك؟!
أين أنت من أصحاب الدين والشيوخ الذين يحملون رسالتك وهم معبئون بالنفاق والحثالة؟!
أين أنت ياالله ...حينما كتبت علي أن أعيش هكذا تعيسا أمد الدهر...لما الظلم وانت الذي لقبت نفسك بالعادل؟!!

أين أنت ؟!!

صمت طويلا بعدها...كانت كل خلية من جسدي وكأنها تلفظ شيئا عاشت به طويلا....أكملت حينها:

-أنا لا أؤمن بشيئ لا أراه....أنا لا أشعر بك...أنت ليس موجودا...اذا كنت موجودا أعلن لي نفسك....أعلن لي عن رحمتك..عن عطفك..أعلن عن أجوبة تأخذ بي إلى طريقك...أعلن لي عن الحق..أعلن لي روحك الواسعة التي تملأني ايمانا!!!

ثم تصاعدت أنفاسي وكفاي يضربان الأرض بكل قوة قائلا:

أما الآن...فانا أعلن ...أن لا إله لي منذ اليوم...لن أصلي...لن أؤمن بك...لن أدعوك....ولو كان لي إله...من الأولى ..أن يكون أمي...فهي التي لم تتخل عني يوما..وتحملت كل معان الظلم من أجلي...

*حينما وصل محمد لتلك النقطة..قلت في نفسي ...قد ألحد اذن ؟ فهل ستكون تلك نهاية القصة ؟!... في داخلي كانت مشاعر مختلطة. ..من العطف عليه...والغضب لأجل الله..أملك ردا لكل أجوبته...فقد كان جدي رحمه الله معلمي في الوصول إليه...قد رباني أن أصل إلى الله بقلبي وعقلي أولا ...فاذا أمن القلب والعقل...تصبح الشعائر والصلاة سبيلا إلى مودة الوصال بيني وبينه ...

أكمل بعدها قائلا:

قمت من جلستي...وعهدت نفسي ألا أؤمن طيلة حياتي إلا بما يتغلل إلى قناعتي دون موروثات ...توجهت لأكمل نومي بعدها مرتاحا بعد صراع طويل...رغم غصة شعوري أنني أصبحت هكذا معلقا في الهواء...وحده وجود أمي يستطيع أن يضفي على روحي صلابة إيمان بالمعتنق الجديد..

وقد عزمت ألا أخبرها فتثور علي...وأن الذي ليس لي إلا سواها.!

في نومي تلك الليلة...زارني حلم غريب...رأيت رجلا..يرتدي عباءة بيضاء يمسك بالعصا ..ذو لحية أضفت على ملامحه وقارا ووجه يشع نورا ...يمسح على رأسي.

-لا تخف...هات يديك لأعلمك !

وكان يحمل صورة لشخص...أشار إلى الصورة وابتسم لي.

-لن تصدقين من كان بالصورة ياليلى !

(11)

- كان أبي، أبي الذي كان سببا لأوجاعي وآهاتي..أبي الذي أضفي على روح أمي حزنا لا يخفي على الأعين..

أكمل الرجل بوجهه الذي ملأ قسماتي ارتياحا:

-ربما كان أباك شر...لكن الله ليس شريرا!

..ظل يقولها حتى اختفت ملامحه رويدا رويدا..وذابت في الفراغ..قمت من نومي على غفلة من حلم كنت أود تكملته لكن ذلك لم يحدث ، شعور بالأسف ملأني لإنتهاء الحلم سريعا ...

فلأول مرة منذ أن تفتحت عيناي على حقيقة الدنيا...أشعر بالراحة تحتويني...لوهلة تساءلت..هل هو الله الذي يبعث لي باشارات؟ وهل معنى ذلك أنه موجودا أو أنه يشعر بمعاناتي؟ ومن هذا الرجل الذي استشعرت فيه ملامح أبوية طالما حرمت منها في صباي؟ !

لكن كل ذلك ذهب أصداء الرياح...حينما وجدت أبي بصوته الأجش في ذاك الصباح يطلب من أمي الشاردة في سكون وخنوع:

-ياسناء أنت ياوجه الشؤم...

-ماذا تريد؟ هكذا قالت أمي بصرامة وان تخلل جوراحها بعض الخوف.

-أريد المال

-ليس هناك مال...انت ستصرفه على نزهاتك الليللية كحال كل يوم.. لتمرح في سكرك أنت وصحبة السوء..

-ماذا قلت؟ هكذا نظر إليها شذرا

-قلت لك ليس هناك مال!!!

فماكان له سوى أن جذبها من شعرها بكل قوة بيد... واليد الأخرة تطفئ أعواد السجائر الصباحية...بها...

-والآن أين المال؟

لتخبره أمي أخيرا عن المال...بصوتها المكلل بصرخاتها وتوسلاتها لعله يكتفي بهذا القدر من الأذى ..

ثم انصرف إلى عبثه بعيدا عن المنزل غير عابئا بذلك الحطام الذي يحدثه وجوده به...

لتنهار أمي كعادتها...وأنهار أنا الآخر...وأضمها إلى صدري برقة فلا

أضيف عنفا إلى ذلك العنف الذي استكان بها منذ قليل...وكأنه حرم علي حق البكاء..وحق التظاهر بالضغف ...وحق اللجوء إلى حضن يحويني..هي الضعيفة...وأنا الشاب الربيعي...لا أملك إلا أن أتماسك وأكتم ألمي أمام أقرب الناس إلى قلبي!

مضيت اليوم كله ...أحاول أن أضمد جراحها بقلب أثخنته الجراح...ونفس أقرب إلى حال الثكالى الموجوعين بآلام لاينفع معها شفاء!

عزمت الصباح التالي..أن أروح عن نفسي وعن حزني بنزهة في قطار إلى الأسكندرية، أفكر في حالي الذي تفاقم أمره ،لطالما اعتبرت الأسكندرية سكني ببحرها الذي يضفي على ربوعها حياة...بعد أن أطمئن إلى انصراف أبي عن المنزل...وأعود في نفس اليوم حتى لا يلحظ أحد ما شيئا...وحتى لا أترك أمي في وحدتها مع ذئب وأن سكنت أنيابه باستسلامه لها

وفي الصباح الموعود ذهبت إلى المحظة وقد وجدت نفسي أخيرا ..أتنفس عبق الحرية من قيود طالما طالت معصمي من وجود إله رغم كل تلك الشكوك التي أثارها الحلم بوجوده... لم يكن معي إلا القليل من المال.. بالكاد استعنت به على ثمن التذاكر...لأمنى نفسي بالاستمتاع بيومي صابرا على أيامي المقبلة والتي تحمل لي رياح مجهول لا أراه...

انتظرت حتى أتى القطار..وكان يومها عطلة...فكان فارغا نسبيا مقارنة بالأيام الأخرى...ظللت أمشي في طرقاته...حتى وصلت إلى مقعدى وكان بجوار النافذة. وذلك المقعد بجواري كان فارغا..

تنفست الصعداء...لأستعد لدخول خلوة تأملية تفصلني عن كل ذلك العالم...لكن قطع ذلك صوت شابه العجز..قال لي:

-السلام عليك يابني

فرددت السلام وهممت بالنظر إلى ناشد السلام...فوجدته...هو ...كان الرجل ذو العصا..لكنه كان بهيئة أخرى لاتقل رحابة واتساعا عن الأولى...بعباءة وعمة خضراء...في روحه محبة تتجلى ظاهرة للعيان...وفي وجهه الأسمر شيئ من الراحة والألفة والسكينة...ولحية مهذبة..وفم بشوش ..وابتسامة صافية...كما جاء في حلمي...

اندهشت كثيرا...فهل قد جاء من أجلى ...أم لعلها صدفة؟ أو هي ترتيبات قدر كنت أتمناه ؟! أم هو الله يعلن لي عن وجوده مرة أخرى؟!

ترددت أن أجيبه بالسلام...فما مازلت مقتنعا بمعتنقي الجديد...لكني تحرجت..ورأيت في ذلك تصرف لايمت للانسانية في شيئ...فرددت:

-وعليكم السلام ياعماه...هكذا أجبت بلهجة محببة

جلس بجانبي...لأراقبه بطرف عيناي...كنت منجذبا بشدة للهالة التي حوله...فهل تكون ذلك ثمرة روحه الطيبة.؟ !

وكانت هناك سبح من خرز مختلف ألوانه ...تزين معاصمه...وسبحة أخرى يشدو هو بحباتها الواحدة تلو الأخرى لتكون زاده في الذكر والعبادة...

استمرت حالة الذكر تلك حوالي ساعة...وأنا أجلس مشدوها...يبدو لي هذا الرجل وكأنه انفصل عن عالمه...

يتحدث إلى ربه فعليا...وينطق بالتسابيح....مستلذا برحيقها في فمه...بصوت خفيض يغلبه البكاء تارة أو التدبر تارة أخرى...

أحببت طريقة ذكره حقيقة...لم أرى أحد يسبح بتلك الطريقة من قبل..هل مايورثوننا من طرق في المدرسة أو حتى من أمهاتنا في البيت كانت موروثات تربية صنفت خطأ أنها دينية؟!

ومن ثم أخرج مصحفه... كان يقرأ بصوت حنون ...يرتقي بي هناك في عوالم أخرى ... شعرت بروحانية عظيمة..لم أعرفها من قبل..كانت كل كلمة تنطق منه بتدبر وبلاغة منقطعة النظير ! أشعر بنفسي وقد بلغت نشوة لا تضايهها اي نشوة عرفتها في حياتي...

ثم فعل شيئا غريبا ...اندهشت له..... فهل كانت تلك اللحظة تحديدا هي بداية تحولي ؟!

(12)

مسح على رأسي كما
كان بالحلم..أغمض عينيه وشاهدته يتلفظ بالكثير من القرآن..لم أكن
لأعترض على الأمر..فقط أحببت فعله.
شعرت بالراحة تعرف الطريق لي ...ترققت سواكني وشعرت بحرية أو
ربما نشوة لم أتذوقها في حياتي أبدا!
قبل رأسي وابتسم ليقول لي:
-هل أنت مريض يابني؟
-لا ...هكذا قلت بلهجة أقرب إلى البراءة..وكأنه أبي الذي لم أعرف معه
معان تثريني مثلما حدث مع ذلك الرجل..
-إذن أنت تائه .
-لم تقول ذلك؟
-الغصة التي في جوارحك وشرود عينيك يخبرني بذلك..
كادت دموعي تراودني لتخرج من مخبأها...فلأول مرة هناك أحد يشعر بي
ويهتم ويقيم وزنا لمعاناتي في تلك الحياة!
-لا أخفيك القول ياعمي...أنا ضائع...قلتها مستسلما
-لم الضياع يابني والله موجود؟
-وهل الله موجود حقا؟
ابتسم أكثر وكأنه فطن إلى شيئ ليقول لي:
-ان هذه هي مأساتك اذن ؟!
-أي مأساة؟!
-مأساة ضياعك..أنت ضائع لأنك لم تعرف الله...لم تشعر به...لم تتحسس
نوره...ولم تراه في قلبك فكيف تؤمن بوجوده؟!
زادت دهشتي أكثر وأكثر,,كان إحساسي به لايقل عن رؤيتي لشيئ أبهر
عيناي..أو ربما أحساس معجب يري مطربه المفضل أو حلم يمر على
الإنسان فيختطف شغفه حتى اللحظات الأخيرة...
-ربما .....قلت في تشكك ثم أكملت:
-اذن كيف أراه إن كان موجودا؟
-هذا سؤال إجابته ليس ببحث ساعة أو ساعتين..أو حديث مرسل...فربما
تقضي عمرك ماض في البحث...يابني إن الله كيان عظيم...تتسع رحابه

وصفاته عن آخرها ..لذلك أنت تحاول رؤيته كل يوم وكل ساعة وطيلة العمر حتى يستقر ايمانك به في جوفك ...

ثم استكمل:

مشكلة الناس أنهم إما يستعجلون في معرفة الله...أو أنهم يكسلون عن معرفته!!!

-اذن هل لك أن تعلمني!!!

-سأعلمك حتما...لكن قبل كل شيئ هل تعرف مالذي جاء بي إلى هنا؟!

-لا

-لقد جئتني في الحلم كما جئتك..

-ماذا؟!! قلت ذلك والدهشة تكسوني..

-كيف حدث ذلك؟

-إن الله لا يكف عن إرسال رسائله أبدا وإن لم نراها يابني...إنه يحبك ويريد أن يساعدك في التعرف عليه!

-يحبني كيف وهو يظلمني؟!

-ستعرف كل شيئ لاحقا....حين نبدأ سويا رحلة التعلم...لكن عليك أن تثق بي مهما كانت الظروف..

-ولماذا أثق بك؟

-لأنك تحتاج لهويتك لذلك عليك أن تغامر ياولدي!!!

لم يتكلم طوال الطريق بعد ذلك...حتى أنه توقف عن التسابيح...فقط كان ينظر من نافذة القطار..ويتأمل..

حاصرتني الأسئلة بجنون وقتها...فهل إذن بدأت الرحلة؟ وهل ما يفعله جزء من الرحلة...وماذا علي أن أفعل إذن؟!

ثم استقر أمرى إلى أن أنظر إلى ماينظر إليه...كانت الطبيعة تشاغلني بروح الحياة فيها...لذلك لم أستاء كثيرا حينما طال صمته...

قطع شرودنا صوت بوق القطار الذي أعلن عن الوصول إلى مدينة الأسكندرية...رقص قلبي فرحا كعادته منذ أن كنت صغيرا..كيف لا وأنا على موعد مع صديقي البحر الأكثر إخلاصا بين أصدقائي...لطالما حكيت له أسراري وأسكنته نجواي وبحت له بشكواي ؟!

ترجلنا من القطار وكان العم مستمرا في صمته....وأنا كل ما أفعله هو

اتباعه...كان يسبقني بخطوات رشيقة لاتتناسب مع عمره...وكأنه متحررا من كل شيئ!

تمشينا سويا حتى وصلنا إلى الكورنيش ومن ثم جلس ليتأمل البحر....ساد صمت أطول تلك المرة..لكنه فجأة قطع الصمت أخيرا:

-هل تعلمت أول درس؟

-ماذا تقصد؟ هكذا سألته والحيرة تشوبني

-أول الطريق إلى الله هل خمنته؟

-لم أفهم بعد

-يابني...مالذي جاء إلى خاطرك حينما شاهدت الطبيعة من نافذة القطار؟

-كنت مستمتعا بجمالها...وأغوتني روحها الخلابة حقا!

-حسنا يابني..أول الطريق إلى الله التأمل.. .أن تنظر إلى عظمته التي تتجسد بداخل الطبيعة.

.الله يابني حيا باقيا في الأشجار التي تروي الأرض بظلالها الوارفة...

وفي السحب حين تتلألأ لترسم لوحات صافية الجمال..

وفي الزرع حينما تنبت بذوره ويتمايل يمنة ويسرة..

وفي البحر حين مده وجذره..

وفي النسائم التي تحمل لنا دفئا يزكي الأنوف...كل شيئ هنا يسبح بروحه ! الله في روحي وروحك وروح كل الأحياء...وتبقي الفطرة الخيرة فينا شاهدا على ذلك!

قطع حديثه صوت بائع الذرة...رائحتها الشهية مع صوت البحر تشجيني...تظل أسعد لحظاتي على الإطلاق...حينما أستمتع بمذاقها وأنا على تلك الحال...مشهد فقير لكنه يخبرني أن السعادة تكمن في البساطة أحيانا ..

وكأنما قرأ أفكاري...فاشترى واحدة لي وله ثم في لمح البصر حدث شيئ ما غريبا..

حينما أكل هو الذرة..كانت السرعة صاحبته..رأيت صدره يهتز ليسعل ...ظل كذلك مدة ورأيت دموعه تغتصب مآقيها بكل عنف حتى نهضت لأنقذه لكنه توقف حينها وابتسم لي ثم قال:

-وهذا هو الدرس الثاني

-أي درس

-العناية والرحمة ثاني الطرق إلى الله...

-أي عناية؟

-عناية الله يابني...في أنه لم يتركك بعد خلقك..ظلت روحه بداخلك لتحميك مادمت حيا..تستر جسدك العاري من العجز لتحيي كما تستر روحك من الذنوب حتى تستطيع أن تتجمل !

يمسك السموات ويثبت الجبال في كل لحظة فلا ترتبك ملامح الأرض النابضة بالحياة!

للحظة تزلزلت الدموع في عيني ..انتباني شعور بأن السلام يحل على أوردتي رويدا رويدا وأن الدماء في جسدي تزدهر وتتورد بعد أن كانت قابعة في بركة من الحزن!

*ثم أخرج من جيبه شيئا غريبا ليلى ....خمنى ماذا كان ليلى ؟!

-ماهو ؟

-كانت صورتك ...

-صورتي أنا ؟! يالهي ....هل كان جدي إذن ؟!

-نعم

-كيف ذلك غير معقول!!!!!

-كنت جميلة جدا ...تتجلين في فستانك الأصفر..وتعزف عيناك أجمل قصائد الأنوثة ...

-لكن محمد...أنا لم أحب أبدا اللون الأصفر... ولا أتذكر أن لدي فستانا بهذا اللون.....هكذا قاطعته!

*صمت قليلا...حركة عينيه تفضحان شيئ من الارتباك أو ربما التردد... ثم قال:

لابد أن الأمر اختلط علي اذن...تعرفين نحن الرجال تفوتنا بعض الأشياء أحيانا.

-أكمل اذن ! هكذا قلت له...

-هل لي أن أستميحك عذرا...وددت لو أني أكتفي بذلك القدر اليوم....على أن نكمل حكايتنا غدا باذن الله...

-هل سيكون من نفس المكان هنا أيضا؟....

-ربما سيكون المكان مختلفا تلك المرة!

-أين؟

-اتركيها لحينها ...سأمر عليك غدا بعد المحاضرات في الساعة الواحدة.... اتفقنا؟

-اتفقنا قلت ذلك وأنا خائفة ....فلم أطمئن له تماما بل كانت شكوكي تزداد لكن الفضول يقتلني حقا

ركبنا سويا السيارة تلك المرة. وكان السائق بداخلها ..مررنا بنفس ذلك الطريق الذي كان يحف المقابر....حينها تذكرت رحلة جدي مع محمد في القطار...اذن هل قابله حقا؟! هكذا قلت في نفسي!

أوصلني إلى الجامعة عند المكان الذي تعود أن يأخذني منه....ثم تمشيت على مهل إلى المنزل...أحاول التفكير بما قاله لي....

دخلت البيت...وألقيت السلام على أمي....كل ما أردته...أن أنام فالتعب يقتلني حقا...ارتديت ملابسي...

ثم اذا بي أجد شيئا مفجعا..يالهي مالذي حدث هنا ؟ !

(13)

وجدت فستانا باللون الأصفر هنا في خزانة الملابس الخاصة بي...لمجرد أن رأيته...طالتني شهقة أصدرت صوتا عنيفا...كان ذلك هو أخر ماتوقعته تماما .. فستان أصفر في خزانة ملابسي لا أعرف عنه شيئا...كنت أكذبه منذ قليل بأني ليس لدي هذا الفستان...

يالهي..ساعدني مالذي حدث أذن؟

خرجت لأمي أحمل فستاني بيدي وكانت تشاهد التلفاز..مرتدية قميصا قطنيا فضفاضا.. كانت أمي تؤمن بقيمة الحرية لكن في نفس ذات الوقت هناك نظام...يعرض للعقوبة الصارمة إذا ماخالفت مواعيد الدخول والخروج إلى المنزل....لم أستطع تحديدا مالذي رسمه وجهها على التحديد...لكنني أجزم أن ملامحها بدت غريبة...شيئ من االترقب أو ربما الرثاء ؟ لا أعرف...فماكان لي إلا أن قلت لها:

-ماهذا أمي ؟

-إنه فستانك ليلى

-كيف أمي؟...لم أشترى طيلة حياتي مثل هذا الفستان...من الذي زج به إلى هنا؟

-لا أحد ليلى..انه فستانك بالفعل

صمت قليلا...ثم تساءلت بشك :

-من كان هنا قبل قليل؟

-لا أحد ليلى...هل يمكنني مساعدتك في شيئ ما؟

-لا أمى ...شكرا

-هل تناولت غذاءك لهذا اليوم؟

-تناولت بعضا من المقبلات أمي...لا تنشغلي لحالي..

مع كل تلك الحرية التي كنت أنعم بها بين أحضان أمي...كان هناك شيئ من الدفئ المنقوص بيننا...لا أعرف مالذي أوصلنا لتلك الحالة؟!

استكنت إلى غرفتي كعادتي...فاغلب أوقاتي في ذلك المنزل كانت في عزلة عن عائلتي...ربما لأني أعرف أنه ليس هناك من يشبهني..أو يفهمني...فمالفائدة من حديث لاضالة منه ؟!

ليس هناك سوى جدي...كان هو من يؤنسني باحاديثه العطرة الممتعة التي كانت تدخل على قلبي السرور..وتشجيني بقصص وحكايات لا أشبع منها

ولم أنساها طيلة حياتي

نمت تلك الليلة مبكرا...بعد أن أعدت الفستان إلى خزانة ملابسي...عازمة أن أسال محمد غدا .كيف عرف بأمره..ولماذا لا أستطيع تذكره؟

ظلتت محدقة في الفراغ فترة...حاولت النوم ..فلم أستطع....بدأت في عد الأرقام بالطريقة العكسية لكني لم أفلح أيضا

ظللت على ذلك الحال ساعتين على الأرجح...ثم ذهبت في غيبوبة عميقة...

لكني قمت بعدها من النوم...على صوت أحد يوقظني بصوت جهوري....ليلى أفيقي...لماذا تخليت عني ؟

قمت من نومي والفزع يلفني بأنيابه ...حينما أضأت نور الغرفة...لم يكن هناك أحدا...ترى مالذي حدث؟ هذا يشبه حلمي من قبل!

-يالهي ساعدني...مالذي يحدث معي اليوم ؟!! هكذا قلت بصوت خائف

قمت بعدها لأتوضأ وأصلي فكانت تلك عادتي كلما انتباني الفزع من أمر ما...

ربما هدأت الصلاة من روعي قليلا...لكنها لم أعد للنوم مرة أخرى...فقد كان تفكيري أكبر من أن يستوعبه عقلي الصغير ليستكين ويكف عن أنينه المزعج الذي كان ينخر ولا يصمت أبدا

في الصباح كان الوضح قد تحسن قليلا....فكنت أقول لنفسي قريبا سنتهي تلك المآساة إلى الأبد...وسأعرف ماحكاية كل تلك الأحداث؟

ارتيدت ملابسي..وحملت حقيبة يدي.. ...وتناولت فطوري على عجل...

كان الفضول ينغص مزاجي المشاكس...لم أكن أود الذهاب إلى المحاضرات ذلك اليوم....لم أعد ملتزمة تلك الأيام كثيرا...كيف لنفس أن تعرف الالتزام وهي محملة بشتات الفكر وانشغال الوجدان بما لا يسع طاقتها!

انتظرت في المكتبة الخاصة بالكلية...أحاول قراءة كتاب ما حتى الموعد المنتظر...أخرجت كتبا عدة في علم النفس...لكنني كلما فتحت أحدهم وقرأت سطرا واحدا...تومض عيناي بضباب لا أستطيع تحمله فأغلقه...

مر الوقت هكذا ...حتى الموعد المنتظر...ثم ذهبت بخفي الريح إلى المكان المتفق عليه....

وعلى مايبدو أن الانتظار كان عنوان اليوم...فاننتظرت طويلا لأكثر من

ساعة ولم يظهر بعد...
التمست له الأعذار...قلت لعله منشغلا...لكني احترت فيما أفعل...واستقر ذهني على العودة على أن أعود غدا في نفس المكان وذات الساعة...
لكن الليلة تلتها ليلة أخرى ...والغد لم يكن أفضل من اليوم...والكوابيس لا تتوقف عن التمسك بحبال الوصال بيني وبينها...حتى خلت أنها قد تصبح صديقتي الفترة القادمة
ظللت على ذلك الحال...أربعة أيام...وأنياب الإنتظار تفترسني..ورياح الفضول تجتذبني...وأجنحة الشوق إليه تتملكني...لم أعرف لما هذا الأحساس...فلم أعرفه إلا منذ عدة أيام...لكني أشعر كمن يعرفه منذ زمن طويل ...
في اليوم الخامس...كان أملى مبتورا...لكنني لم أشأ أن أخذله..فالبتر أبدا لا يعني الإنتهاء...
مر من الوقت عشر دقائق...حتى ظننت أن اليوم سيكون كسابقيه...هممت بالإنصراف...لكني شاهدت تلك السيارة التي ساقتني إلى المقابر يومها....
وكان بداخلها نفس ذات السائق...ترجل من السيارة...وقال لي بابتسامته المعهودة:
-آنسة ليلى .. تفضلي ..طلب مني الأستاذ محمد أن أوصلك
-إلى أين؟
-ستعرفين حين الوصول..
وددت لو أنني أكسر رأسه هو وسيده....لم كل ذلك العذاب؟
تبا لكم جميعا...لكني قط لم أستطع التلفظ بذلك ...لم يكن لدى سوى وتيرة الإستسلام كي أنساق إليها...
استقريت بداخل السيارة والضيق قد بلغ بي مداه ...لكنه لم يكن ليثنيني عن التوقف...
شقت السيارة طريقها على أنغام أغاني السيدة أم كلثوم حتى وصلت إلى حي الزمالك.....تلك المنطقة التي لا تتواني عن الرقي مهما شابت. ..وقفت أمام مطعم مطل على النيل...يحمل طابعا رومانسيا....ثم قطع الصمت أخيرا صوت السائق وهو يقول:
-هاقد وصلنا أنسة ليلى...حينما تدخلين ستجدين الأستاذ محمد

بانتظارك.....هناك في أقاصي المطعم...
ذهبت بخطوات يلفها الخجل ..ويبعثرها الخوف ...ويسكنها الفضول..وكلى أمل أن أعرف مالذي يحدث حقا...
لكني مان دخلت المطعم...حتى استوقفني أحدهم يناديني باسمي...ليخبرني شيئا عجزت عن تصديقه!!

(14)

آنسة نور؟ حمد لله على سلامتك لماذا لم تعودي لنا بطلتك كما عهدناك دوما...

رفعت حاجباي قليلا..لوهلة اندهشت..فمن تكون نور هذه التي يخبرني عنها.. جاء في خاطري انه ربما كان مخطئا في شخصي أو شبه عليه

-المعذرة ... لكن اسمي هو ليلى ..ولا أعرف عما تتكلم على وجه التحديد؟. !

-حقا ؟ أنا أسف ...أنت تشبهينها كثيرا!

-لا بأس..حصل خير.....صدر مني ذلك في محاولة لتخفيف الأسى الذي رسمه وجهه

توجهت إلى محمد حيث يجلس.. وكلي فضول أن أعرف من تلك التي تشبهني على وجه تلك البسيطة, تمنيت لو أنها كانت مكاني الآن لتوجه ذلك المصير وأرحم رأسي من صداع لا يغادرني منذ البداية التي زجت بها أقدامي في ذلك الموضوع.

رأيت محمد وقد تأنق وكان في أحلى حالاته وقد ارتدى قميصا بلون أحمر قاتم على بنطال أسود وقد صفصف شعره إلى الوراء بطريقة تبدو جذابة للغاية, أتاحت لي أن أرى وجهه بشكل واسع ويعكس صفاء عينيه

-مرحبا محمد هكذا قلت ورجفات القلب لا تهدأ عن التوقف!

-مرحبا ليلى...كيف حالك اليوم؟

قالها والضحكة تزينه بشكل بدا لي غريبا

ساد صمت قليلا ثم قلت:

-بخير الحمد لله...مالذي حدث في الأيام الماضية لماذا لم تأت؟

-ظروف ألمت بي منعتني من الحضور...هل اشتقت لي ؟

قالها والخبث يطل من عينيه

-مالذي تظنه؟ أنا هنا فقط لأجل تلك الحكاية اللعينة لأعرف ما علاقاتي أنا بكل ذلك.....

.وقد كنت كاذبة بطريقة شابها العدوانية قليلا...كان هناك بالفعل مشاعر من الألفة بدأت تجتاحني بشدة تجاهه..فهل تكون تلك بداية عهود الإشتياق ؟!!

-حسنا أنا فقط أحاول أن أضفي على الأجواء نوعا من المرح..كفي عن تلك النظرات والكلمات النارية التي تقذفينها من آن إلى أخر..

ابتسمت له بشكل بدا ممتعضا لأرجوه:
-لاتقحم المرح في أجواء الجدية!
-لماذا أنت هكذا ليلى ؟ يتحول كل شيئ لديك بما يشبه الواجب أو مايمليه عليه ضميرك!!
-لأني نشأت كذلك
-اذن على أن أخبرك بنفس الطريقة أن من واجبك أحيانا أن تخرجي تلك الطفلة التي بداخلك!
-هذا أمر لا شأن لك به..هل من الممكن أن تستكمل الحكاية فأنا لن أستطيع التأخر كثيرا..
فاتت ثوان من الوقت ثم تذكرت الفستان وأمره فتساءلت:
-محمد بالمناسبة..حينما عدت إلى البيت وجدت ذلك الفستان الأصفر بداخل خزانة الملابس...وحينما سألت أمي أخبرتني أن ذلك الفستان يخصني لكن لا أتذكر..هل لديك تفسير لذلك ؟
-أمعقول ؟! لقد دهشت أيضا لأنك لم تتذكريه ! وكانت عينيه تتفحصني ثم استكمل:
-ربما تكوني قد نسيتيه في غمار الحياة...خاصة أن مقابلتي مع جدك كانت منذ زمن..
نجحت وجهة نظره أن تقنعني قليلا لكنها لم تشف غليلي كاملا
-اذن..أكمل مالذي حدث بعد ذلك؟!
-حين أخرج جدك صورتك تلك من بين طيات ملامبسه ..شاهدت الدموع تترقرق في عينيه..ثم قدمك إلي:
-هذه هي حفيدتي ليلى..تلك هي زهرة عمرى واقحوانة حياتي..حين أنظر إلى نعم الله..أجد أن ليلى من أحلاها من بعد نعمة توحيده والإيمان به وبدينه..روحها جميلة ..لكنها فقط حساسة جدا..تحاول دائما أن ترضى غيرها...حينما تندفع إلى التجارب تخوضها بروح البطل الذي يمكنه انقاذ الآخرين..لكن دون أن تحسب العدة أو تقيم وزنا لما تريده هي .أو حتى لأحلامها أحيانا كثيرة!
شيئ من العاطفة ملأ قلبي تجاهك ليلى..كان لدي رغبة مجنونة أن أصل إليك يوما وأن أراك..

ثم أراد جدك أن يخفف من انفعاله فرأيته يأخذ بيدي...ليخبرني:
-دعنا نسير قليلا
حين مشينا كانت النسمات تبعث لنا بتحية تشفي أرواحنا وزرقة البحر تزكي أبصارنا من آن إلى أخر.والشمس رويدا رويدا تفرش الأرض بأشعتها الساطعة .حتى ظننت أن رحلتي في التعلم لديه قد انتهت وأني سأعود غير مشبع...لاشك أن قريرتي قد ارتاحت لبعض الأجوبة..لكن مازال هناك بعض من الأسئلة التي تقف حائلا بيني وبين ايماني!
عبر بي الطريق كطفل صغير يسكن إلى حائط أمان لأول مرة في حياته, سلكنا شوارع جانبية...ثم توقف أمام إشارة مرور..أشار إليها ثم قال:
-برأيك ماذا سيحدث لو أنه ليس هنا إشارة مرور ؟
-بالتأكيد سيكون هناك حوادث ...لأن الناس لن تلتزم من تلقاء ذاتها..
-تماما وهذا هو مفهوم الحرية...خلقنا الله أحرارا يابني..لكن بدون أن يجور أحدنا على الأخر..فجعل هناك نظام وثواب وعقاب تسير عليه أفئدة الكون فلا يكون هناك ظلما ولا طغيانا!
-لكن هناك ظلم بالفعل
-الظلم يابني في نفوس الناس..في ضمائرهم..حينما يغمرهم نسيان روح الإنسانية بداخلهم ويتعاملون بنزعات الشر وأسراب الشياطين التي تحلق فوق رؤوسهم....الشر بأيادي الناس يابني فما دخل الله بكل ذلك ؟!
تذكرت ظلم أبي وقهره لأمي...ثم خطر لي سؤالا:
-وماذنب الذين وقع عليهم الظلم إذن ؟!
-ذنبهم أن قبعوا في دور الضحية..وإرتضوا بذلك..خافوا الناس قبل الخالق..ووقعوا في عشق العبودية...ظنا منهم أن ذلك ربما سببا يتمكنوا به الهروب من مسئولياتهم!!..
-أي مسئوليات؟
-مسئولية العيش برسالة وهدف ...فدور الضحية يجعل الفرد منا يلقي باللوم على آخرين ولا يلتفت لدوره في الحياة!
نظرت له مشدوها..فلأول مرة توقفت قليلا عن أن أرى أمي بنظرة قهر...هل كانت أمي مخطئة لأنها لم تدافع عن نفسها أمام شر أبي الذي استفحل!!

-لكن عماه...إن تلك المعاني العميقة لا يفهمها إلا من كان وعيه متفتحا تفتح الوردة في ربيعها...فماذا عن حسابهم؟!

-يابني.. نعم هناك حدود وشرائع..لكن الله في المقام الأول يحاسبنا على النوايا وماوصل إلينا من وعي وقناعات..فتظل المسألة نسبية...أنت لا تستطيع القول..أن فلانا هذا في الجنة وأخر في النار أو تجزم بأن الله سيعاقبه على شيئ او يجازيه فتلك متروكة لعلم الله..وحده يستطيع فعل ذلك!

-ولماذا كتب على بعضنا بعض الأقدار دون الغير أو كتب علينا أن نلقى الشر ؟ ! كان بامكان الله ألا يكتب ذلك!

-إن الله الذي خلقك وخلق كل إنسان.. يعلم ماذا سنختار بعلمه المسبق الذي تجاوز كل الحدود.. نحن لدينا الاختيار أن نفعل دوما ! والله علم ماذا سنختار فكتبه ..تلك هي كل القضية!

-وماذا عن الرزق؟

نظر إلى عيني بقوة ثم حدث شيئ عجيبا..فهل تكون تلك القشة التي أعادتني لروح الله من جديد؟!!!

(15)

جاءت عصفورة صغيرة.. لتقف على عمامته...وكأنما تسكن إليه...ليرسمان صورة تنثر سلاما وورودا على روحى المتعبة...ظلت هكذا فترة...لا حركة...لا التفات...وهو ساكن...مبتسم..ثم شاهدتها تلتقط شيئا...حتى ذهبت بعيدا.....وقد بدت متحررة..خفيفة الروح...وكأنما يغزوها فرحة ما ..

نظر إلى ثم قال:

-تعودت دائما أن أضع في عمامتي طعام لتلك العصافير الصغيرة...فاذا ما جاءت إحداهن.. وجدت ما تصبو إليه من رزق...تخيل يابني...ربما كانت تلك العصفورة جاءت بمحض السعي وهي لا تعرف...لكن الرزق كان ينتظرها....

والله يابني ليس بظلام... هو موكل بتدبير الرزق...وكل مافي الكون موكل بالاشتغال والعمل

-لكن آية (ويرزق من يشاء بغير حساب) في القرآن ألا تناقض كون الله عادل؟

-على العكس تماما يابني...إن الله يقصد هنا أن يرزق الساعي إلى الرزق إذا أراد...فأصل الآية من يشاء أن يتم له الله رزقه بعمله ومن ثم يأتي توفيق الله!

الرزق موجود يابني...هذا قانون الهي في الكون...لربما يتأخر لنقصان سعيك...لكنه حتما يأت ....

كيف لله الذي يرزق النمل في جحورها أن ينساك؟ أو ينسى أي مخلوق...وكيف لله أن ينساك حين يشتد بك الوجع..وتحاصرك الهموم...وقد أفلست...فينزل رحماته وأمطاره عليك...هو فقط يحب أن تذكره...لا أن تلجأ للعباد وهو أحق باللجوء.. يابني أقم صلوات ربك واتقن صلوات عملك...تكن صلوت رزقك وسكينتك !!

وجدت دموعي ياليلى وقد ملأت قلبي وروحي وترانيم وجداني...وكأنما جاءت لتطهرني...لتسكب سلاما ونورا على نفسي...

لم أعتبر نفسي ياليلى ملحدا منذ البدء...وإن حكم علي الناس بذلك...كنت أريد أن أشعر بأن الله موجود...كنت أريد أن أتأكد أن الله الذي رحم نفسا قتلت تسع وتسعين روحا يرحمني...يشعر بمعاناتي...حينما لثمني الظلم

وأحرقتني نيران والهوان والمعاناة....
يعتبرون الملاحدة...شياطين هنا على الأرض...لكنهم لم يسألوا أنفسهم عن سر الشيطان الذي استفحل بداخلنا...قط لا تفلح المعارضة ولا التنكيل لنا بالوعيد أن نؤمن...لكن يكفينا طبطبة رجل مثل جدك..يكون فيه من روح الله...يذكرنا برحمته قبل عذابه..وبجنته قبل ناره....يعلمنا بأن الله محبة..وأنه السلام..وأنه الأمان ..وأنه الواسع برحابه والذي يتقبلنا مهما فعلنا...الصلاة إليه تحوينا مهما صغرت أوقاتها...وتبسطت حركاتها...تمدنا بالحياة...وتغسل أرواحنا المنهكة من شئون الدنيا ....
حين أتمت روح الرضا سكناها في جسدي ياليلى...قلتها:
-أشهد أن لا إله إلا الله...وأن محمد رسول الله
أشهد بأنه إلهي..وأني عبده...وأنه الوحيد الذي أدين له بأفضال النعم...وأني لا أعبئ بأي شوكة تصيب خاصري إلا تلك الشوكة في البعد عنه...قطع وصاله وحده يضفي ظلاما على روحي التي لا كينونة لها إلا بوجوده!
أشهد بأنه الرحمن...وأن ملكوته الواسع يظللني...وأني آمنت برسله أجمعين...وبالغيب... وأن قلبي الذي يألف ويكره بقدرته وحده...ليتبعه ..لا حيلة لي عليه ولا سلطانا !

.....
...
من داخل مستشفى العباسية للأمراض النفسية جلس الطبيب مازن على الكرسي في حجرة الكشف...ناظرا في مجموعة أوراق أمامه ليقول:
-إلى متى يانور؟ إلى متى ستظلين قابعة بشخصية ليلى هكذا؟ تلك هي المحاولة العاشرة معك ..حاولت أن أجعلك تكتبين لعلها تسهم في علاجك...وأنت لازلت لا تريدين أن تعودي لشخصك؟... وتعدين تلك القصة السخيفة مرارا ...هل يعجبك ذلك الدور لأنه يرسم لك نهاية عابد كما تمنيت أن تكون؟!
حينما قال اسم عابد..أحست نور بالصداع....المكلل بضباب الرؤية!
-لا أعرف عما تتكلم على وجه التحديد؟
-نور...جدك هذا ليس موجودا إلا بخيالك أنت!
-أنت تكذب....ثم إن اسمي ليس نور

-حسنا مادمت لا تصدقيني ... إليك الصدمة لعلك تستوعبيها تلك المرة..
أنت نور ..طبيبة جلدية...لست طالبة بكلية الأداب . وأنا مازن ..لقد تخرجنا سويا أنا وأنت...أحببتك...لكنك رفضت الإرتباط بي...لكني ظللت على أمل أن تضمنا رياحين الزمن...تخصصت في الجلدية ...وتخصصت أنا بالأمراض النفسية...وظللت أتابعك من بعيد...وجدت منك اتصالا بعد 9 سنوات من التخرج...تخبريني فيها عن شخص تحبيه..بالبداية صدمت...لكن حبي لك...كان أقوى من ألا أتمنى لك سوى كل خير وأحاول مساعدتك .

أخبرتيني عن مشكلة تخصه...جاءك ملحدا بدأ يتلمس الطريق نوعا ما إلى الله...لكنه لم يكن قد آمن بعد....كان بداية تعارفكما وشم (لا إله) يطلب منك أن تزيليه بمهارتك كطبيبة جلدية... .كانت ظروفه القاسية وضرب أبيه وقهره لأمه...سببا في إلحاده وأن تشعري بمعاناته....أباك الموظف كان يفعل نفس مايفعله أباه التاجر لكن مع والدتك انت!

نما الحب الوارف بين ضلوعكما...حاولت أن تعيديه بما لديك من ثقافة وبصيرة إلى طريق الله....وبالاستعانة بمساعدتي كطبيب نفسي لأكون وسيلة لشفائه من جروحه

لكن إرادة الله كانت أسبق إليه منك...فمات في حادث سيارة قبل أن يعلن إيمانه!

تصاعدت أنفاسها...وزاد احمرار وجهها...لتقول له بصوت عال:

-أنت كذاب...كذاب

-حسنا والفستان الأصفر يكذب؟...هل تعرفين لما لم تتذكري ذلك الفستان كما في القصة ؟ لأنك كنت ترتديه يوم أن استقبلت خبر وفاته. كنت ستقابليه لكن إرادة الله. حالت دون ذلك....وحتى المطعم ..كان المكان المفضل لديكما ليضم أشواق اللقاء...حتى المقبرة...كانت مقبرته هو وأمه...دفن هو وأمه فيها....دفناه سويا نور....لم يحضر أباه وعثر عليه منتحرا بعد ذلك...لم يكن لديه أقارب أو اصدقاء...هل تذكرت ياحبيبة العمر؟ إن عقلك يحاول جاهدا أن يعيدك لواقعك بتلك الأخطاء في الحكاية...لكنك تصرين أن تلعبي نفس اللعبة...ليضيع منا المزيد من الوقت!

مادت بها الأرض...وهويت...وسمعت صوته يناديها من بعيد....لكنها

هبطت إلى بئر مخيف من الظلام...حينما أفاقت...وجدت مازن..وقد أمسك يداها...وقد أحاطت الهالات السوداء عينيه..ونبتت شعيرات خفيفة على ذقنه ...وأصاب الهزال وجهه وجسده...وكانت أمها على جوارها الآخر تمسح شعرها .

-حمد لله على سلامتك نور

-الله يسلمك...

-هل أنت بخير الآن؟

أومأت برأسها بالموافقة..لتبدأ أخيرا رحلة تتقبل فيها أوجاعها ونسيان الماضي واستقبال القادم بنفس راضية مؤمنة!

.....

-استسلمت نور أخيرا لي...او هكذا ظننت يادكتور...و.تزوجنا وأنجبت منها هدى وعابد....لكن بقيت مشكلة واحدة.....لازالت تخبر ولدينا عن جدها ذو الأصول الباكستنية...

-سيد مازن...أنا أود أخبرك شيئا....في الحقيقة...أنسة نور لازالت بالمشفي!

...

تمت بحمد لله

بقلم/هبة اللكاوي